مجلة العلوم الإنسانية
ISSN 1112-9255
العدد السادس ديسمبر 2016

OEB Univ. Publish. Co.

الزوايا:من الركن إلى هيكلة المجتمع ـ مأسسة الرقابة الاجتماعية
les zaouïas: de la Réclusion à la structuration de la société- l'institutionnalisation du contrôle social

د. عبد السلام فيلالي، جامعة عنابة، الجزائر

تاريخ التسليم:(2016/05/10)، تاريخ القبول:(2016/08/30)

ملخص :

نحاول من خلال هذا البحث تسليط الضوء على مؤسسة اجتماعية لعبت وما زالت تلعب دورا غاية في الأهمية في التمكين لمشروعية تقوم على الحظوة والاعتراف بمركزيتها في تعديل البناء الاجتماعي بحسب تصورات ومعتقدات صوفية هي في الأصل إيديولوجية. يتعلق الأمر بمؤسسة هي الزاويةو التي أخذت دورها من تهيكلها كتنظيم سياسي–اجتماعي عبر تجلياتها الدينية المتحكمة، من حيث أنها فضاء تمارس فيه العبادةو الذكرو التعليم.سوف يرتبط تحليل عمل المأسسة الذي تقوم به الزاوية من خلال حق التأثير الذي تمارسه والذي يسمح لها بإنتاج آليات رقابة وضبط اجتماعية، مم مكنها من تعويضها لميكانيزمات السلطة من حيث الدور المنوط به في ضبط وانتظام إيقاع الحياة الاجتماعية في منطقة المغرب العربي على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: الزوايا،الركن،هيكلة المجتمع، مأسسة، الرقابة الاجتماعية.

Le résumé:

Ce travail de recherche a pour objectif d'étudier une institution sociale, qui a joué ,et joue encore, un rôle très important dans la légitimation qui se base sur le prestige et la reconnaissance de son statut central en la modification de l'édifice sociale selon des conceptions et des Croyances mystiques qui sont des idéologies à l'origine. L'analyse du fonctionnement de l'institutionnalisation que joue la zaouïa a travers l'influence qu'elle exerce et qui lui permet de produire des mécanismes de contrôle sociale, cela lui a procuré la compensation de son pouvoir selon son rôle qui consiste en la régularité du rythme de la vie sociale dans la région du Maghreb Arabe en particulier.

Mots clés : les zaouïas: de la Réclusion, la structuration de la société- l'institutionnalisation , contrôle social

مقدمة:

نسعى من خلال هذه الورقة تسليط الضوء على مؤسسة اجتماعية لعبت وما زالت تلعب دورا غاية في الأهمية في التمكين لمشروعية تقوم على الحظوةو الاعتراف بمركزيتها في تعديل البناء الاجتماعي بحسب تصورات، ومعتقدات صوفية هي في الأصل إيديولوجية انسحاب مما يقتضيه المجتمع من تجاذبات وسجالات والعيش بالتالي في حالة تناغم مع ضجيج الكون الذي لا يتاح الإنصات فيه إلا لها.

هذه المؤسسة هي الزاويةو التي أخذت دورها من تهيكلها كتنظيم سياسي–اجتماعي عبر تجلياتها الدينية المتحكمة، من حيث أنها فضاء تمارس فيه العبادةو الذكر و التعليم، و هو تحكم أدى إلى خلق تضامنات و تساندات و تحالفات على مستوى الجماعات القبليةو الريفيةو خاصة بين القرنين السابع عشر و الثامن عشر. ولعلنا نذكر أهم الزوايا في الجزائر والتي تجد انتشارا أكثر في جهة الغرب، مثل الزاوية الدرقاوية المنحدرة من الطريقة الشاذلية التي أسسها مولاي العربي الدرقاوي المتوفي حوالي 1823. وكذلك الزاوية القادرية التي تعتبر أول طريقة صوفية في العالم الإسلامي، و التي كانت أقوى الزوايا وتتبنى زهدا دينيا وراديكالية سياسية. و أيضا الزاوية القادرية التي تعتني على وجه الخصوص بالتجارة و الدين. ومثلهن الزاوية الرحمانية المنتشرة في ناحية قسنطينةو المنحدرة من الزاوية الخلواطية التي تأسست في القرن السادس عشر من قبل محمد الخلواطي. وكذلك الزاوية التيجانية، هذه التي رأينا مؤخرا كيف أن مجرد قيامها بتنظيم ملتقى في مقرها بالأغواط قد أثار حفيظة الجارة المغرب،وهي زاوية أسسها أحمد بن محمد بن المختار بن سليم التيجاني المولود بالأغواط سنة 1737 والمتوفي سنة 1815،والتي يعرف عنها تبنى حياة الانعزالو عدم الدخول في المسائل السياسية من حيث أنها تتجه على وجه الخصوص إلى المسائل الأخلاقية من حيث التركيز على العبادةو الصومو الزكاةو الحجو جهاد النفس(Collection Microsoft ® Encarta ® 2005).

وعندما نشير في هذا المقام إلى فعل الهيكلة، أي هيكلة الأنساق الاجتماعية بما هي مسار استراتيجي، فإن الأمر يتعلق أساسا، على ما تذهب إليه مارغريت أرشر Margaret Archer، بدراسة ما يعبئه الفاعلون من قواعد وموارد داخل علاقاتهم الاجتماعية(Archer,Margaret:1988)، تتيح لهم توجيه عمل أنساق التوجيهو التحكم في البناء الاجتماعي إلى حيث يتوافق مع أنساق القيمة داخل المؤسسة المشرفة. و هذا ما يدفع وفقا لأطروحة أنتوني غيدنز، إلى اعتبار أن التغير أو إمكانية التغير الملازمة لهذا البناء هي ملازمة أيضا ودائما لإعادة الإنتاج الاجتماعي، وهو ما يعني الإشارة إلى التغير الاجتماعي الذي يتقرر بالضرورة ضمن سياق المأسسة كهيمنة جماعة أو فئة ما تنحو فيما بعد إلى تحويل الولاية إلى سلطة داخل التنظيم (Vandycke, Robert, 1988.Structure et changement sociale dans les sociétés dominées.quelques refléctions à propos des thése d'Alain touraine.)، و هذا مجال المشروعية التي تتأسس وفق اكتساب طابع القبول لدى الجماعة الاجتماعية كما فصلته حنة أرندت، في

دراستها الشهيرة (Arendt.Anna, 1972, p 123.).تحويل يتمظهر في كل مرة تسعى فيه كل شرعية انبنت على منظومة رمزية إلى النزول إلى حيث الممارسةو حيث التفاعل المباشر مع متطلبات و رهانات الوجود الاجتماعي، وما ينجر بعد ذلك من بروز مقتضيات الحسم و من ثم الانحياز على حساب الحظوة الموجهة إلى الجميع افتراضا.

وفي هذا السياق تسحب المأسسة معها، كما أبان كل من بيرغر و لوهمان، التاريخية و الرقابة، فالمؤسسات لها دائما تاريخ هي نتاجه.إن فعل التاريخية عندما يتمفصل و رؤية نقدية إنما يهدف إلى التحقق مع التاريخي الموصوف كتآلف حوادث حاصلة حددت دافعية خلاقة لجماعة متوافقة فيما بينها وترغب في ضمان استمرارية ديموغرافية وفق ضرورات العيش و التكيف و صيروراته من أجل تحقيق السلامةو التوسع.حيث أنه لا يمكن فهم بشكل كاف بنية مؤسسة ما بدون فهم المسار التاريخي الذي أنتجت فيه.فإن المجتمع هو نتاج إنساني و واقعة موضوعية و أن الفرد نتاج اجتماعي.إن النظام الاجتماعي يوجد فقط كنتاج النشاط البشري،و إن عمليات التكيف تسبق كل مأسسة.فالمأسسة بهذا، تنتج كلما كانت هناك نمذجة متبادلة بين الأفعال التكيفية لكل فاعل وفق الخبرة المكتسبة.فتكون للمؤسسات بالتالي القدرة على مراقبة السلوك الإنساني من خلال وضعها لنماذج سلوك محددة سلفا توجهه في وجهة قد تكون متعارضة مع وجهات هي نظريا ممكنة (Peter L. Berger and Thomas Luckmann, 1966.).

إن نماذج الفعل الاجتماعي في تقررها كبنية وفق قاعدة الرقابة الاجتماعية ثم خضوعها للتعديل بفعل مؤثرات لها صفة القسر، مثل الحروب و التجارةو الدين، تستدعي عملية استقصاء لمجمل البنى الأولية للمجتمع من حيث أنها منتجة لها، وكيف أفردت أنساق اجتماعية داخل ديناميات ثقافية موجهة متجددة.فلا نستطيع في تصورنا فهم عمل البنية الدينية في المغرب الأوسط في القرن الرابع عشر بدون الرجوع إلى طبيعتهاو عملية تعديلها عبر المؤثرات العارضة لهاو الظروف المحيطة بها ثم استقرارها في البنية الجديدة.فهاك هذه العبارة لدانيال ريفيه d.Rivet حين يقيم اختلافا بين إسلام العلماء الذكوري و الحضريو الإسلام الشعبي (العامي) vernaculaire المنقول شفهياو المرتبط بالعالم الفلاحي وبالنزعة المحافظة للبربر فيقول:"نا العرب لم يؤسلموا البربر، وا نما البربر بربروا الإسلام.هؤلاء البربر بعقيدتهم شبه الوثنية، التي تقوم على تقديس الأولياء الصالحينو عبادة الله الواحد" (Rivet, Daniel.2002 p 63).إن فهم هذه العبارة تحيل إلى تناولها ضمن البنية الاعتقادية للبربر قبل مجيء الإسلام وثم في تفاعلها معه، كما يقترح فرنان دومان Fernand Dumont، ليس في كونها قطيعةو إنما كعبور تاريخي نحو أشكال مراتبيةو وجود ثقافي في ذاته، أي بما هي مسار إعادة استعمال جزئي للرواسب الثقافية

face à la culture pOpulaire. Écriture de la .Fernand Dumont.*Lüsebrink, Hans-Jürgen*)
،(http://www.erudit.org/revue/vi/2001/v27/n1/201581ar.pdf.ocioculturels nostalgie et usages

و عندئذ احتفاظها ببعض من مقوماتها الأصلية مع تلونها بلبوس القيم الجديدة.و هذا ما سوف يتكشف بجلاء مع تجذر الزوايا في الوسط الريفي.

إن الأمر هنا مع تناول مسألة المأسسة هو في صميميته اتجاه إلى فهم هيكلة المجتمع الذي شغل فضاء مكانيا و الذي نحاول فهم مبانيه،و هو اتجاه رأسي نحو البحث في الأداء العملي لأجل العيش و التفاعل و احتلال حيز في الزمان و المكان قبالة الضغوطات و الحتميات التي تفرضها ظروف الحياة في مجملها، عبر الحروب وما تستتبعه من إعادة هيكلة الموصوف سلفا،و الهجرات وما تخلفه من زحزحة وتحوير في الهيكل الاجتماعي للجماعات المصنفة في الما–قبل و الما–بعد، أي في التي تغادر وفي التي تستوطن أو في التي تحتمي بحسب ما تشكل في جماعات محظية سواء من الشرفاء أو الأجواد أو المرابطين عبر تطورها في المغرب العربي. و هنا المقصد هي الخصائص البنيوية المطورة لمنظومة وظائفية جديدة تؤسس لبنى اجتماعية جديدة تمتلك القدرة على تحوير وتعديل ما هو جوهري في حياة المجتمع بما يتميز من تداخل البنى العرقية و اللغوية و الدينية و المذهبية و الإيديولوجية و التي ما فتئت تعيد هيكلة الأنساق الاجتماعية لهذا الحيز المكاني الذي هو الجزائر الآن.

إن البحث في المحددات الأساسية التي تقف عليها القيم الحالية و التي تقدم هوية ذات معالم يمكن استقرائها بشكل علمي،و هذا ما يشار إليه بـ" الحقائق" الاجتماعية، بتعبير إميل دوركايم، أي التدليل على نتائج العلاقات بين الأفراد بما هي المنطقة الخاصة للعالم الاجتماعي. ذلك أن الأدوار و المعايير التي تشكل المؤسسات الاجتماعية تكمن في داخل الأفراد الذين استبطنوها، وكذلك خارجا عنهم (مجموعة من الكتاب .نظرية الثقافة.1997.ص224).. فهذه القيم تظل دائما مرتبطة بالعلاقات الاجتماعية التي تساعدها على إضفاء المشروعية عليها(مجموعة من الكتاب .نظرية الثقافة.1997.ص39)، منطلقين من البناء النظري–التفسيري الفيبيري في تمييزه بين الموضوعات النموذجية للمعرفة السوسيولوجية التي تتمثل في الأفعال الاجتماعية الفردية، و الكيانات الاجتماعية ما–فوق الفردية في تفسيرها انطلاقا من الفاعلين الأفراد و أفعالهم، وتأهيل آلياته بنيويا بإقامة روابط بين تاريخية historité وعمل المجتمع و الصراع من جهة وبين التناقض و الحركية الاجتماعية من جهة ثانية.كل هذا ونحن نضع في عين الاعتبار أن المجتمعات التي تظل عرضة للسيطرة و الهيمنة هي مجتمعات تتسم بعدم التجانس الاجتماعي و بعلاقات التبعية. هكذا و وفقا لهذه الخلفية النظرية في مقاربة مؤسسة الرقابة الاجتماعية كما تهيأت مع الزوايا في داخل الانتظامات الاجتماعية المغاربية المتألفة من تمازج الأنساق الاعتقادية الدينية القديمة وما توافد من ممارسات دينية إسلامية يغلب عليها طابع التعالي و الابتعاد عن التجسيد، سوف يتجلى لنا مدى تداخل و تلازم المتعالي الصرف مع متطلبات الواقع الاجتماعي الذي إلى أيامنا هذه يظل يلح على وجود منظومة من الحدود و الطاعة يحبذها و يرغبها الفرد لأنه مسكون بخوف طفولي هو في نظرنا ينبع من انعدام الثقة في المجهود الذاتي. و عليه تبدو هذه الرقابة كضرورة أنطولوجية و اجتماعية

توفر الحماية للفرد وللمجتمع في ذات الآن. وسنوضح هذا الأمر من خلال متابعة كيفية نشوء وتطور الزوايا.

الزوايا:من تحقيق الاستقلالية إلى الإشراف

يمكن القول أن تجلي دور الزاوية كمؤسسة تمتلك أهلية الإشراف على المجتمع المحلي انطلاقا من هذا الدور قد تحقق ونجم أساسا عن حالة الاستقلال التي كان يتمتع بها التنظيم الاجتماعي المحلي سياسيا، حيث أن الروابط مع المركز كانت ضيقة جدا، ومن ثم تمتع الزعماء المحليين بالإنفراد في التسيير.لقد بدا أن شيوخ القبائل والطرق من المرابطين، كما يذهب محمد أركون "قد بدؤوا ومنذ القرن الثالث عشر يؤطرون ويضبطون سكان المناطق البعيدة جدا عن السلطة المركزية أو الغيورة على استقلاليتها، بحيث تصرفوا دائما طبقا لروابط القوة المتغيرة التي تحكم علاقتهم مع السلطة المركزية:ففي الوقت الذي فيه تضعف هذه السلطة كانوا يتجهون إلى فرض اختياراتهم عليها،وأما في أوقات قوتها فكانوا يتعاملون معها بذكاء وحنكة" (أركون، محمد. 1996.ص 291).و هذه النزعة المميزة للمجتمعات المغاربية هي نتاج رغبة عميقة كامنة نحو الاستقلال الذاتي وعدم قبول سلطة خارجية.وقد بينت الخصائص الاجتماعية للمجتمعات المغاربية المتوزعة بين خاصية ثنائية العصبية والدين، كيف أنها أسست لبنية التنظيم الاجتماعي التي حددت ملامحه السياسية.وعليه أضحت الزوايا حسب ما يذهب حسين آيت أحمد "معاقل الإسلام الشعبي التي رفعت وساندت الكثير من السلالات الحاكمة"(آيت أحمد، حسين.2002. ص 81). من حيث أن الحاكمين أدركوا بوضوح أن الطرق تمارس وظيفة هامة في مساعدة العامة على قبول قدرهم، كما أن الاعتراف الجزئي بالطرق قد أتاح لهم أن يسيطروا بشكل ما على اتجاهاتها الهرطقية كما يذهب مونتغمري وات(وات، مونتغمري.1981.ص107).لم يبق الدين الإسلامي في بلاد المغرب العربي بما هو رابطة يجمع أفراد القبيلة في فضاءات واسعة وفي ثقافة واحدة (Fremeaux,Jacques,1993. P25) ، في مأمن من الخرافات والبدع رغم ابتعاده عن الخصومات الفقهية الكبرى التي عرفها المشرق العربي.حيث أنه امتاز بازدهار نوع من الصوفية الشعبية ابتداء من القرن الخامس عشر، انتشرت شيئا فشيئا مع نشاط الجماعات الدينية في شكل تنظيمات دينية صوفية يجمع بين أفرادها نسق صوفي واحد أو كما يقال "طريقة" واحدة (شارل أندري، جوليان.1983. ص 390). شجع تطورها وازدهارها وكفل لها دورا، بارزا الروافد المشرقية وأيضا الحركة المرابطية ولعلنا نضيف تأثير خاصية البنية العقائدية لمجتمع شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي.

الزاوية كعملية إدماج محلية واستعادة اجتماعية

أخذنا هذه العبارة كعنوان من جاك بيرك (Berque, Jaques.1978, p 542.)،والمقصد هنا ينبني على الإحاطة بالشحنة الدلالية المتضمنة في بنية الزاوية بما هي تنظيم اجتماعي أعاد صياغة القاعدة الاجتماعية في المغرب العربي، من خلال إعادة إنتاج للتراكم التراثي الإسلامي متمثلا في الغنوصية

الصوفيةو المعتقدات الشعبية المستبطنة منذ مئات السنين التي كان سائدة في بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي، ثم ظهوره في لبوس جديد، ليصير ميزة تميز الإسلام في شمال إفريقيا تجعله ذا خصوصية وذا هوية مستلهمة من الواقع الاجتماعي المحلي المرتبط بالفئات الشعبية.وعليه يبدو الأمر مع الزوايا كاستعادة اجتماعية للمخزون الرمزي المتمثل في مجموع العقائدو التمثلات الاجتماعية للمجتمع المغاربي في العصر الوسيط أكثر ما هو استلهام للتيار الصوفي، لأنها لا تؤسس لحالة دينية محضة بل لتنظيم اجتماعي يوظف اعتقادا لا عقلانيا–هرطقيا من أجل أغراض سياسية.

والزوايا في المغرب العربي تنظيم له أصول شرقية مرتبطة بالنزعة التصوفية التي ظهرت في القرن الثاني الهجري، التي هي في مضمونها استجابة لمختلف المشاكل الداخليةو الخارجية، قامت في مواجهة الإسلام الرسمي للفقهاء ولحكم الخليفة نظرا لافتقار العلماء إلى قيادة معنويةو أيضا لعلاقتهم الوثيقة المتنامية مع الحاكمين مما استدر شعورا، كما يذهب مونتغمري وات، من أن العلماء انحازوا نهائيا إلى صف السلطة ضد عامة الناس (وات، مونتغمري. مرجع سابق. ص ص.106–107).

وتطورت كذلك بتأثير المعتقدات الشيعية في تفكير المتصوفة التي طورت فكرة الإمام المنحدر من النبيو الحامل للحقيقة المخفية وراء الحقيقة الظاهرة في الإيمان الذي بمقدوره عن طريق الوكالة وعلمه وسلطته أن يكشفها للأتباع/المريدين وبهذا تشكلت عبر القرون سلاسل نقل الأسرار من معلم إلى تلميذ بما يعرف بالإسناد.

إن الأعضاء المنتمين للزاوية هم جماعة من الأفراد الأتقياء وقد كانوا في الغالب رؤساء زوايا محترمين، وهم كتيار ارتبطوا بتطبيقات دينية تتسم بالحظوة الكبيرة التي يتمتع بها المرابط لأنهم يتمتعون بقدرات خارقة وكذلك لجهل الناس (Berque, Jaques, 1978.p 538) ، حيث أن اسم المرابط انتهى إلى تطبيقه على الولي الذي لما يزال على قيد الحياة، أو الولي المدفون في القبة التي تحوي قبره. وتتألف السلطة في الزاوية من شيخ الزاويةو هو المسئول الأول، ومن مجلس يضم وكيل الزاوية وشيوخاو أعيان القبيلة المرتبطة بها ووجهاء المهاجرين. وشيخ الزاوية يطلق عليه اسم المقدمو هو"القيم على الزاوية الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام... ويليه وكيل الدخل و الخرج،إليه النظر في زراعة الأراضي وفي جميع الأمور الاقتصادية "(نسيب، محمد.بدون تاريخ.ص 186). والزاوية في الأصل ركن البناء، وقد أعطي اسم الزاوية في البداية للرباط/الرابطة الذي يشير إلى المكان الذي ينزوي فيه الولي مع تلاميذه، أي الصومعة"(نسيب، محمد.بدون تاريخ.ص 186).أما كلمة المرابط فتحيل إلى ساكن الرباط،و المربط له علاقة بالجهاد،و هو يشير إلى المكان الذي تجمع فيه الفرق و هو القلعة التي تنطلق منها الهجمات. وقد ارتبط بفكرة الحرب ضد الكفار وفيه يتم التحضير روحيا وماديا للمعارك.وهي، أي الزاوية، تعود إلى القرن الحادي عشر تزامن ظهورها حينما قاد المحارب الديني البربري يوسف بن تاشفين "جيشا شعبيا" في حملة تطهير وتوحيد بلاد المغرب كافة "و قد أكثر بن

تاشفين في الصحراء و على منحدرات الأطلس من بناء المدارس الدينية المحصنة لتكوين المحاربين الدعاة"(آيت أحمد، حسين. ص 16).الزاوية مما سبق جماعة من التلاميذ (وهم عبارة عن طلبة أو مريدين) يجتمعون حول شيخ لأجل التعلم وتستعمل فيما بينهم كلمة الأخ في التعامل اليومي. وتتحدد علاقات المعلمو المريدين بعضهم ببعض انطلاقا من أن تسمية المريد تعني في أدب الصوفية المسافر الذي يريد الوصول إلى الله "و هو في سفره هذا يقطع مراحل يتجرد خلالها من العلائق التي تشده إلى آداب أهل الدنيا وقيمها لينقطع إلى بناء علاقات أخرى مع أطراف أخرى.و هذه الأطراف هي الشيخ المرشد، و الأصحاب رفاق الطريق، و الله"(الجابري، محمد عابد.2001)، فالعلاقة من هذا قائمة على أساس طاعة المريد للشيخو امتثاله لأمره، فالشيخ يقوم مقام الله في توجيه المريد وفق مبدأ تطهير النفس الذي ينشده المريد المؤدي إلى فناء المريد في الشيخ بتعبير المتصوفة (الجابري، محمد عابد.2001.ص 445).يجتمع المتصوفة لكي يعيشوا في الرباط ومنطلق هذا الاجتماع متأت من فكرة أساسية تحكم النزعة المرابطية تتمثل في أنه لكي تتطور في الحياة الصوفية/الطر يقة، باعتبارها سمو الروح نحو الله، يجب أن يكون لك مرشدا تجب طاعته بشكل كامل، والذي يجب تصديقه بطريقة عمياء.لأنه من خلال تكوينهم و ورعهم على المستوى الديني راح ينظر إلى هؤلاء الشيوخ على أساس أنهم أحباب الله.إن هذه المكانة الدينية الرفيعة ستنقل دورهم إلى الحماية الدنيوية فهم بمثابة القطب الذي تدور حوله هموم الناس.ومن خلال اتصالهم بالناس أخذت الجماعة المرابطية معالمها و صورتها، فمن خلال هذا الاتصال بعدت الزاوية جوهريا عن روح التصوف المبنية على اعتزال الناس.فلما كانت غايتها الاجتماع أضحت وسائلها دنيوية وصار ت عملا وانتظاما ضمن الاتساق العام للمجتمع، وذلك لأن المرابط الذي هو في الأصل شيخ أو مريد لم يعد يعرف في عزلته إنما في علاقته بالناس وطرحه لسلطة مهابة صارت مع مرور الوقت حظوة تورث.

إن الذي يميز النزعة المرابطية، بما هي تأهيل انتقائي، أن لها ديناميكيتها الاقتصادية والاجتماعية(Berque, Jaques.1978, p 53.) ، يستمد أصوله من تصور روحي لروابط الإنسان مع الله وحتى صناعة المعجزات، فكما أن المعجزة "بالنسبة للنبي هي علامة صدقه فكذلك الكرامة:و هي علامة ولاية الولي و صدقه" (الجابري، محمد عابد.200، ص 457).و هكذا تتجلى مكانة المرابط/الشيخ الاجتماعية ليس فقط في بعدها الديني المبني على الزهد و استنكاف متع الحياة، بل من السؤدد الذي أضحى يتمتع به داخل المجتمع الذي يدخل في باب الولاية autorité، فهو من هذا ذو سيادة و سلطة توجب طاعتهاو إلا فالعقاب محيق لا محالة.بمعنى أنه صار يُنظر إليهم نظرة تقديسية، من حيث أن لديهم قوى خارقة وكرامات باستطاعتها الشفاعة عند الله،و هم بالتالي المغيث الذي يتلمس عذابات الناس و همومهم لكي يلقوا الشفاءو الخير على يديه. ومن هنا تتأتى قدرتهم على الإتيان بالخوارق، إنهم أولياء الله الصالحينو أحبابهو خاصته.و هكذا تأخذ ممارسات الزوايا شكلها في وضع العبادة من كونها تبدأ من

الصلاة/التأبين حتى تبلغ الحالات الهيستيرية، كما يقول أ.درمنغام E. Dermenghem (EncyclOpædia Universalis 2004) ، كشطحات تتشد الحلول في الله. ويعتقد دانيال ريفيه D. Rivet، أن سلطة شيوخ الزاويا تتميز بكونها سلطة مركزية وبمناعة ضريبيةو خارج–مكانية extraterritorialité، وبتراتبية اجتماعية تتناقض مع المساواة المثالية لجماعة المؤمنينو الأخوة (Rivet, Daniel, p 65).

إن النزعة المرابطية بما لاقته من مهابةو حظوة وسؤدد في بلاد المغرب العربي هي "واقعة معقدة تزدحم فيها الأفكار الصوفية،و الحركات السياسية كحركة الشرفاء في المغرب والأفكار النبوية المبشرة كالمهدية وكذلك الممارسات الشعبية الخرافية وتقديس الأولياء الصالحين أحباب الله". ويؤكد علماء الاجتماع المعاصرين على التناقضات و الاختلافات الممكنة بين الدين المنشور و الدين الممارس، بين الإسلام الموحى بهو الإسلام المعاش، أي بين طريقتين في تصور الروابط مع الله:الإسلام الأرثوذوكسي كما تحدد عبر النصو الإسلام الوسائطي(Vatin, jean-claude.1983 p63) الذي نتج عن أسلمة بعض العقائد القديمة التي كانت سائدة قبل الفتح الإسلامي في بلاد المغرب العربي، كالاعتقاد بالجن التي تسكن قرب العيون وفي الأشجار وفي المغارات،و التي تأخذ شكل الحيوانو التي حينما يمر شخص بجانب صخرة يرجمها.

لم يكن الهامشو هو يعيش انحسارهو انغلاقه بعاجز عن إنتاج ومأسسة أنماط رقابة تأتت في البداية من مشروعية دينية اعترتها المهابةو الحظوةو الطاعة استحالت إلى سلطة دنيوية تمارس ضبط التميزات و التجاذبات كما يطرحها الواقع الاجتماعي، كل هذا يحدث وسط هالة من الخرافةو الطلاسم جعل يؤكد أنه كلما كان الامتثال أكثر لسلطة الولي/المرابط كانت المفازة الموعودة أقربو أجدر.

و الزاوية في الأصل غوص في الوجدانية الصرفة التي يتيحها الإسلام المنصرف إلى بواطن الأشياء ومن ثم ما تتيحه سواء للشيخ أو للمريد من نعم وصفاء الروح.هكذا كانت ولكنها ولما اختلط الديني السامي المتعالي بالدنيوي راح يستل من منظمة التعالي ما يوفر من رقابة قادرة على الدفع بالطاعة في السلوك وبالقبول في التواصل وبالخضوعو الرضا إلى ما لا يمكنه التحقق لولا ستار الغموض و الخوف من حيف يحل ومن لعنة تسقط.

مأسسة الرقابة الاجتماعية:

لقد دفعت الصوفيةوهي التي أرادت الانصراف عن مشاغل الدنيا ومباهجها، دفعت بنزعة تحكم في المجتمع المحلي الريفي في أغلب الأحيان.فأضحت بعد ذلك مشرفة عليه، لذلك اعتقد المستعمر أنه باستطاعته من خلال تفضيل جماعة المرابطين على جماعة الشرفاء أن يتحكم بشكل جيد بـ"الأهالي".

ويذهب محفوظ بنون إلى أن المجتمع المغاربي ينقسم إلى مناطق سلطة فعلية أين درجة الرقابة تتغير بشكل معتبر بالنسبة للمركز(.Bennoune, Mahfoud. 1998 p 14).لقد ظل الهامش (المجتمع الريفي الذي يشكل النسبة الأكبر من الناحية العددية) المتمتع باستقلالية كبيرة قبالة السلطة المركزية وفق

آليات تحكم وتأثير تخضع إلى العلاقات الاجتماعيةو الشخصية أين أثقال الأبوية والجذور الإثنية هي أساسية، ترتبط بنية نظم السلطةو الولاية فيه كما يرى غاليسو بطبيعة البنية السياسية المتمأسسة حسب القواعد الإسلامية من خلال محددين، فهي سلاليةو أشرافية ومحمولة بواسطة الشبكات الدينية للنزعة المرابطيةو الزوايا و الوفاء للسلطة السلطانية .pouvoir sultanien (Gallissot, René.1987. P .72).حيث أن الدين بما هو أصل النظم السياسية الأكثر هيكلة التي عرفها المغرب العربي سيفرد ولاية القادة الدينيين، في البداية مع المرابطين و الأشراف الذين كانوا الأكثر ترشحا لقيادة حركات المجتمع وتسيير الجماعات الواسعة.إن هذا التأصل المبني على القوانين التي مصدرها الشريعة الإسلامية، قد جعل من هاتين الفئتين هما المالكتان للسلطة، وتكمن شرعيتهما في الانتماء إلى دوائر سامية.فتتجلى قيمة الأشراف من خلال شخصية القايد كشكل من أشكال السلطة الفردية استلمت هيبتها و حظوتها من الإرثو العنف.

من خلال ما سبق تظهر الزوايا كخلايا ذات درجة عالية من التنظيم للقبيلة و للسلطة الروحية الصرفة من حيث مساهمتها في بروز إيديولوجية جديدة على المستوى المجتمعي(.Benaissa,Mohamed 2000.p105.) ، عندما أرست نمط علاقات تجمع بين روحي وما هو مادي، أي بتأكيد الربط بين العلاقة الاجتماعيةو البعد الأخروي بما هو وسيلة للعقاب أو التلويح به.

إن سلطة المرابط أو الولي أو القطب بحسب الاصطلاحات المتداولة في الفضاء الصوفي تتبع بالأساس من التمثل الذي ارتسم في المخيال الجماعي للأفراد من كونه يمتلك قوى خارقة ومعجزات أحلها الله فيه لتكون بمثابة البلسم الذي يشفي أسقام الناس.و هذه التمثلات لا يمكن فهمها فقط بإرجاعها إلى الغنوصية التي لبست لبوس الإسلام،وإ نما أيضا بالمعتقدات الشعبية الوافدة من أعماق الماضي أي قبل أسلمة المغرب العربي القائمة على تقديس الأسلاف.

وليس يكفي تفسير سلطة المرابط في المجتمع المغاربي (على وجه الخصوص في الأرياف) بإحالتها فقط إلى المضمون الديني الراسخ فيها، فحينما نتجه إلى استقصاء جانبها الاجتماعي نرى كيف أن العلاقة بين المرابطو المجتمع لم تعد تعبر عن حاجة عقائدية وسيكولوجية لأجل الحمايةو اتقاء الشرور، بل أضحت علاقة ممأسسة، حيث أن فئة المرابطين تكونت كأرستقراطية دينية تحققت لها حظوة ومهابة لدى الناس نظرا إلى"حاجة الوسطاء المتنوعة عل كل مستويات الهدف الانقسامي التي تفضل الرجال الصالحين و رؤساء الزوايا من كونهم كانوا من خارج هذه المجموعات، وكانوا يقدمون خدماتهم ويفرضون تحكيمهم، لهذا كان باستطاعتهم تجميع الفئات الأكثر نفوذ في الأوقات العصيبة نظرا لتمتعهم بكاريزمية ذات أساس روحي (Vatin, jean-claude.p 62). تتبني على انسجام ووفاء المحيطين المرتبطة بالحماية"(Harbi,Mohammed.1954. 1998. p 131) .بحيث صارت طاعتهم واجبة و توجيهاتهم مسموعة.لقد أصبحت هذه الفئة بمثابة قيادة تملك ولاية وسلطة، فانبنت ولايتها على شرعية مصدرها

الدين من حيث أنهم أولياء الله الصالحين، وانبنت سلطتها على قوة التأثير وتحقيق غاياتها نظرا لدخول الأفراد تحت سطوة المعتقدات المرابطية.

قائمة المراجع:

أولا – قائمة المراجع باللغة العربية :

– أركون، محمد.(1996). *تاريخية الفكر العربي الإسلامي*.ترجمة هاشم صالح.(الطبعة الثانية).بيروت–لبنان. الدار البيضاء–المغرب:مركز الإنماء القومي– المركز الثقافي العربي.

الجابري، محمد عابد (2001). *العقل الأخلاقي العربي. دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية*. (الطبعة الأولى). بيروت.لبنان : مركز دراسات الوحدة العربية.

شارل أندري، جوليان.(1983). *تاريخ إفريقيا الشمالية .من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830*. تعريب محمد مزالي.البشير بن سلامة.ج 1.(البعة الثانية). تونس: الدار التونسية للنشر.

نسيب، محمد. (بدون تاريخ). *زوايا العلمو القرآن بالجزائر*. الجزائر :دار الفكر.

آيت أحمد، حسين. (2002). *روح الاستقلال*.ترجمة سعيد جعفر .الجزائر: منشورات البرزخ.

وات مونتغمري، وليم (1981). *الفكر السياسي الإسلامي.المفاهيم الأساسية*.ترجمة صبحي حديدي.(الطبعة الأولى). بيروت–لبنان :دار الحداثة.

و آرون فيلدافسكي. *نظرية الثقافة*.ترجمة علي سيد الصاوي. مراجعة وتقديم الفاروق زكي يونس.(يوليو 1997). الكويت:المجلس الوطني للثقافةو الفنون.

ثانيا – قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

- Arendt, Anna.(1972).la crise de la culture.traduit de l'anglais sous la direction de Patrick Lévy. Paris :Gallimard..

-Rivet, Daniel.(2002). le Maghreb à l'épreuve de la colonistion. Paris : Hachette éditions.

-Bennoune, Mahfoud. (1998). Esquise d'une Anthropologie de l'Algérie politique. (1er edition). édition Marinoor. Alger.

-Berque, Jaques. (1978). l'intérieur du maghreb.xv-xix siècle. Paris :Gallimard.

-Gallissot, René.(1987). Maghreb, Algérie.classes et nation.tome 2. Paris :Arcanter édition.

-Harbi,Mohammed.1954.(1998). la guerre commence en Algérie.(3ème édition) . Paris : Complexe éditions.

l'Algerie,histoire et sociéte(ouvrage collectif). (2000). Alger: Casbah éditions.

-Remeaux,Jacques. (1993). les bureaux arabes dans l'Algérie de la conquête. Paris :Denoël.

-Vatin, Jean-claude. (1983).l'Algérie politique.histoire et société. (2ém édition). Paris :presses de la fondation nationale des sciences politiques.

Encycl Opædia Universalis .(2004).

مواقع الأنترنت

-Archer, Margaret.s.(1988).*Thèorie sociale et analyse de la sociète.*tradution susanne mineau.sociologie et société .vol xxx.n 1.printemps.
.http://www.erudit.org/revue/socsoc/1998/v30/n1/001012ar.html

-Vandycke, Robert. (1978). *Structure et changement sociale sans les sociétés dominées. quelques refléctions à propos des thése d'Alain touraine*.
Un article publié dans la revue Sociologie et sociétés, vol. 10, no 2, octobre 1978, pp. 75-85. Montréal : Les Presses de l'Université de Montréal.
http://www.erudit.org/revue/socsoc/1978/v10/n2/001820ar.pdf.